الفصل التاسع والعشرون

فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين

فإذا كان العبدُ بوصف ما ذكرناه كان كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال بعضُ العارفين: «عُمْرُ العبدِ أمانةُ الله تعالى عنده يسألُه عنه عند موته، فإن كان فرَّط فيه ضيَّعَ أمانةَ الله تعالى وترك عهده، وإن راعى أوقاته فلم تخرجْ ساعة إلا في طاعة الله حفظ أمانته ووفَّى بعهده، فله الوفاء من الله على الوفاء.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أي في تضييع العهد، وفي تركِ الوفاء، وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] أي شهدَ مقامَ اللهِ تعالى منه بالبيان، فقام بشهادةِ الإيقان، فليس هذا كمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه، واتّبع هواه، فآثره على طاعة مولاه، بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده، وكان كمن وصف في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكمن مدحه بحقيقة الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي علامته ودلائله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. أي: به يثقون، وإليه ينظرون، وعليه في كل حالٍ يعتمدون، ولديه من كل شيء يطمئنون، وعنده دونَ كلِّ شيء يوجدون، ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤] الآية.

وليس أهلُ الحقائقِ من المتوكلين، الذين مدحهم الحقُّ بالحق، وأعدَّ لهم الدرجاتِ العلى والكريمِ من الرزق، كمن ذكره بعدهم فقال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ

المُؤْمنينَ لَكَارِهُونَ * يجَادلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٦] مع قوله: ﴿مَا يُجَادلُ فِي آياتِ الله إلاَّ الذينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]. فجعل حالَ هؤلاء وصفًا مشبهًا لمقام أعدائه لما بقى عليهم من أهوائهم، وجعل مقام الصالحين بمعنى من وصفهم فى الآية بحقيقة زهدهم، فقال تعالى: ﴿ومَنْ يَأته مُؤْمنًا قَدْ عَملَ الصَّالحَات فَأُولئكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلى﴾ [طه: ٧٥] فهو العلى، وأحبَّاؤه الأعْلَوْنَ، وإنما كانوا أعلينَ لأن الأعلى معهم، وكنا نحن الأدنينَ لأن الدنيا عندنا.

قال الله سبحانه فى وصف من أعْرضَ عن ذكرِه، ولم يُرِد إلا الحياةَ الدنيا، إذ أمر الحبيب بالإعراض عنه؛ لأنه طلب الأدنى عاجلاً أو سوَّف بالمغفرة آجلاً، لقوة جهله وضعف يقينه، فقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الأَدْنى ويَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقال فى وصف الصادقين المؤمنين: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال فى نعت غيرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عنْدَ الله أنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، فشتان بين من وُصفَ بصدق العهد، وبينَ من ذُكرَ بالخُلف وعُرِّض للمقت، وقال فى وصف طائفة: ﴿ولَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَرِيقًا منَ المُؤْمنينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، فخصَّ أولياءَهُ بتركِ أتباعه، وأدخل بعض المؤمنين فى تصديقِ ظَنِّه واتِّباعه إلا فريقًا، فهمُ الصِّدِّيقونَ والشهداءُ والصالحون، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، وهم المتوكلون المؤمنون حقًا، الذين قال: ﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] وليس من باعَ مالَه ونفسَه محبةً لمولاه كمن لم يسألْه مولاه دون نفسه لئلا يُحفيَه، فيُخرجَ ضغنه عليه، كما قال لطائفة من المؤمنين: ﴿يُؤْتكُمْ أُجُورَكُمْ ولاَ يَسْأَلكُمْ أمْوَالَكُم * إنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفكُمْ تَبْخَلُوا ويُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧]. الإحفاء: الاستقصاء، أى: [إن][1]

(١) ساقطة من (ط).

سألكم سَأَلَ الجملةَ كلّها، وأحبَّ منكم الزهدَ فى نفوسكم بعدها. والأضغانُ: جمع ضِغْنٍ، وهو الحقد. تقول: فلستم فى مكانِ سؤال إذْ لا يكونُ البخيلُ زاهدًا؛ لأنّ أولَ الزهدِ الجودُ، فمَنْ لَمْ يَجُدْ لَم يَزْهَد، ومَنْ لم يزهدْ فى الدنيا لم يحبَّه المولى؛ لأنه محبٌّ لما يبغضُ، ومريدٌ لما لا يحبُّ. فلم يعاملْ مولاه بأخلاقه، ولم يوافقه فى مرضاته، فباعده وحجبه عن مشاهدةِ أوصافه، كما قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وكما قال الرسول ﷺ المبلّغُ عن المآلِ: «إذا أردتَ أن يحبَّك اللهُ فازهدْ فى الدنيا».

ولا تقدر أن تصفَ حشو قلوبِ هذه الطائفةِ من المؤمنين الذين وصفهم المؤمنُ أن لو سألهم أموالهَم ظهرت عليهم أضغانهم؛ لأنّهم من الله فى اغترارٍ بما ألبسهم من الأظهار. فإذا جاء أجلُهم فإنّ الله كان بعباده بصيرًا. إلا أنّ اللهَ تعالى لا يسأل إلا من يحبّه إكرامًا له، ممن يعلم أنه يسارعُ إليه بجملةِ ما سأله؛ لأنّه كريمٌ جوادٌ لا يكبرُ عندَهُ شيءٌ؛ إن سألَ سأل الكلية، وهو المالُ والنفسُ، إلا أنّه لا يَسألُ إلا من خَلَّقَهُ بخُلُقٍ من أخلاقه، فمتى لم يكن عند[1] العبد سواه شيءٌ سأله محبوبه كلَّ شيء، ومتى عظُم فى قلبه العَرَضُ الفانى، وهو ضغينٌ، لم يسألْه شيئًا.

فإذا لم يبق للعبدِ فى نفسه نَفْسٌ[2] ولا من مَاله مالٌ، كان الجوادُ عِوضًا له من ماله، وكان الجبارُ عوضًا له من نفسه. إلا أن اللهَ سبحانه لم يذكر إيّاه فى العِوَض من النفس، وذكر الجنةَ فى البدل عن المال؛ لئلا يدخلَ تحت حكمٍ وهو الحاكم، وكيلا ينضم إلى عِوض، فيكون شَفْعًا، وهو الفرد، فأخفى نفسَه وهو الدليلُ، وذكرَ خلقَه وهو إليه السبيل[3].

فهذا فَهْم أوليائه عنه، وهذه علامةُ المحبةِ الخالصةِ التى لا شِرْك فيها لسواه، ولا دَخَلَ عليها من غيره إيّاه.

---

(١) فى (ط): «على» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «نفسًا» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «فيكون شفعًا وهو الوتر فأخفى نفسه وذكر السبيل ليكون ذلك عليه دليل»

ولا يَصلُح أيضًا أن يُكْشَف عن وصفِ هؤلاء المحبِّينَ؛ لأن حالهم يَجِلُّ عن الوصفِ، ومقامَهم يجاوزُ[١] علومَ العقلِ والوقت، إلا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]، وبقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، مع قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت:٣١ ـ ٣٢]، وقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ ـ ٨٩].

وأحكم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧]. [وأجمل ذلك][٢] بقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٦٣]. ففيه وصفٌ لأهلِ الوِلاياتِ والحبِّ، ومدحٌ لأهلِ الدرجات والقرب، بقوله: ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى لذلك جعلهم درجاتٍ عنده، ولقوله: ﴿وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما تولاهم به وقرّبَهُم منه، وفيه أيضًا ذمُّ المنافقينَ على القراءةِ الأخرى: ﴿واللهُ بصيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾[٣] فقد أبصر أعمالكم أنتم، فلم يجعلْكم مثلَهم؛ إذ لم تكنْ أعمالُكم كأعمالِهم، [لأنّ قلوبكم ليست كقلوبهم فتكون أعمالكم كأعمالهم][٤]، فهذا كما قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

ثم قال فى وصف قلوبنا: ﴿واللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُم وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١].

ثم قال فى فَصْل من القول، ليس بهزل، سوّى بين هؤلاء وهؤلاء: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال:٧٠]، ثم قال فى ضدِّ أولئك كلامًا

(١) فى (ك): «وصفاتهم تجاوز».
(٢) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).
(٣) القراءة التى أشار إليها هى قراءة نافع وعاصم وأبى عمرو فى إحدى رواياته وابن عامر ولكن فى آية آل عمران رقم١٥٦: ﴿والله بما تعملون بصير﴾. انظر: السبعة، ص ٢١٧.
(٤) ساقطة من (ط).

فاصلاً لمفصل، مفسِّرًا للمجمل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، أي: ليس لهم فيه شيء، ولا لهم منه نصيبٌ؛ لأنه لم يجعلْ عندَهم مكانًا لخير فيوجد فيه خيرًا، فكان هذا فصلَ الخطابِ، وبلاغًا لأولى الألباب. شهد لهم بذلك إذ قال: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]. فأيس المؤمنون من هداية هؤلاء فلم يرجُوا منهم مجاهدةً فيه أبدًا؛ لأن الله تعالى لا يهدى من يضلّ. وقيل: ييأس ـ لغة ـ بمعنى يعلم، أى: فقد علموا مما أعلمهم الله تعالى.

ويشهد لهذا المعنى الحرفُ الآخر؛ لأنه بمعناه: «أفلم يَتبيَّنِ الذين آمنوا» فبيَّن لهم بما بين المبين، فسلموا له وأقبلوا عليه، وأعرضوا عنهم فَسَلِمُوا منهم، فكذلك قال الولى الحميد: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام:١٢٩]، وقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة ١١٨]، وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، فكم بين مَن ثبت قلبه فرسخ العلم فيه وبين مَنْ أزاغه؛ فمال إلى فتنة التأويل يبتغيه. وشتان بين من تولاه بنفسه إذ صلح له وبين من ولاّه نفسَه إذا أعرض عنه.

فهذه مقامات المبعَدين، كما تلك مقامات المقرَّبين، فقد دخلوا تحت حُكمينِ لم يخرجوا منهما، أعلاهم دخل تحت فضله، وأدناهم لم يخرجْ من عدله، وقد أجمل سبحانه وصفَهم بقوله: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم:٤٥]، وقال فى ذكر العموم: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤].

فخص أولياءه بالفضلِ، وعمّ خلقَه بالعدلِ؛ فكم من قلبٍ لا يشهدُ إلا الله؛ ولا يسمع إلا منه، ولا يتأله إلا إليه، والله هو الأغلب على همِّه، والأقرب إلى قلبه، وبين قلبٍ حشْوُه الخَلْقُ، وهمُّه الرِّزقُ، لا ينظرُ إلا إليهم، ولا يطمع إلا فيهم، ولا ينظر إلا هم. الخلْقُ أغلب شىء عليه، والخَلْقُ أقرب شىء إليه، فهذا من المبعَدِين بهم؛ لأنّ البعدَ صفتُهم، وظهورَ النفس عليه وتحكُّمَ سلطانها فيه

مكانُ البعد الذى يُوجِدُ البعدَ معه. والأولُ من المقربينَ به؛ لأن القربَ صفتُه، وخنوسَ نفسه عنه وتسخيرَها له مكانُ القرب الذى يُوجِدُ القُربَ عنده، فذلك من السّابقين إلى ربه، والمبعَدُ مثبَّط بنفسه عن ربه، وقد قال تعالى: ﴿فلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهًا آخرَ فتَكُونَ منَ الْمُعَذَّبينَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

فالبعد حجاب، والمبعَدُ فى عذاب. والقُرب نعيم، والمقرَّبُ فى مزيد. ألم تسمع قوله تعالى فى تعذيب المحجوب عن ربّه: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الجَحِيمِ﴾؟ [المطففين:١٥ ـ ١٦]، وقال فى ترويح المقربين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ ـ ٨٩] روح تقريب، وريحانٌ من حبيبٍ، وجنةُ نعيمٍ بقرب مُنْعِمٍ.

وقال المروَّحُ بالقُرب، المُحَيَّا بالحُضور:

فرَوْحِي ورَيحـانى إذا كنتُ حـاضِراً
وإن غبـتُ فالدنيـا علىَّ مَحـابِسُ
إذا لم أُنَافِسْ فى هواكَ ولَمْ أغِرْ
عَلَيْك فَفِيمَنْ ـ ليـت شعرى ـ أُنافِسُ
فلا تَخْفِرَنْ نفسى وأنـت حَبيبُهـا
فكلُّ امرئٍ يصبـو إلى مَنْ يُجَانِسُ[(١)]

وقال المكروب بالبعد، المغصَّصُ بالفقد:

فكيفَ يصنعُ مَنْ أقصاه مالكُه فلَيْس يَنْفَعُـه طبُّ الأطبَّـاءِ؟
مَن غُصَّ دَاوَى بِشُربِ الماءِ غُصتَّه فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غُصَّ بالمـاءِ؟

وشتان بين عبد منقطع إلى ربه يخدمُه وآخر منقطع لخدمةِ الخلقِ. وشتان[(٢)] بَيْنَ

---

(١) هذا البيت من (ك) وهو ساقط من (ط).

(٢) فى (ط). «لخدمة الخلق يعبدهم وكم» وأثبت ما فى (ك).

عبدٍ منقطعٍ عن الناسِ وبين عبدٍ موصولٍ به الوسواس. وشتان بين عبدٍ منقطعِ الشوقِ إلى المولى وبين عبدٍ منقطع بالهوى معاتقٍ للدنيا.

فهذه مقاماتُ المقرَّبين الحُسْنى، وأضدادُها مقاماتُ المبعَّدين السُّوأى[1].

فإذا كان العبدُ على وصفٍ من الحقيقةِ وفى مقامٍ من اليقين[2] استحقَّ الثناءَ من مولاه؛ لتحققُّهِ بالوصفِ، ونالَ القربَ من القريبِ؛ لتبعُّده عن حظوظ النفس. وفى حسنِ الثناءِ من العظيمِ الأعظمِ غايةُ الطالبين، ونهايةُ رغبةِ الراغبين، ولا يكونُ ذلك إلا لأوليائهِ المتقينَ، وحزبِهِ المفلحينَ، وعباده الصالحين، وهم أهلُ القلوبِ السليمةِ الطاهرةِ، وذوو الجوارحِ الخاشعةِ الذاكرةِ، وأولو الألبابِ الراجحةِ الفاخرةِ. وهم ثلاثُ طبقاتٍ: من مقربى أصحابِ اليمين؛ أهل العلم بالله تعالى. وأهل الحب لله تعالى. وأهل الخوف من الله تعالى. فهؤلاء خصوصُ أوليائه المقربين، استحضرهم فحضروا، واستحفظهم العلمَ فحفظوا، واستشهدهم عليه فَشَهِدُوا.

فهُمُ الأدلةُ منه عليه، وهو دليلهم إليه، وهم جامعو العباد به إليه، وهو جامعهم عنده لديه. أبدالُ الأنبياءِ، والربانيُّون من العلماء، أئمةُ المتقين وأركانُ الدين، أولو القوّةِ والتمكين، الذين كُشِفَ لهم الكتابُ المستبينُ، وهداهم إليه الطريقَ المستقيم عليه. وهم المنظورُ إلى قلوبهم كفاحًا، والمقصودون بالمزيد والتحف مساءً وصباحًا.

ومَنْ سواهم من عمومِ المؤمنين من القرَّاءِ والعبَّادِ وأهلِ المجاهدةِ والزهدِ والأورادِ قد أعطاهم الولايات، وفرَّقهم فى الأعمال والسياحات، وأظهرَ لهم الآياتِ، تسكينًا لقلوبهم بها، وطمأنينةً منهم إليها؛ لئلا تدخل عليهم الشبهات فيهلكوا ولا تجذبهم الشهواتُ فيرجعوا، فشُغلوا بالإظهار عن الظاهر، وحُجبوا بالظواهر عن الباطن، واغتبطوا بالحجاب، وسكنوا إلى الأسباب، وعكفوا على المقاماتِ، واستتروا بالملكوتِ والآياتِ، فهم مغبوطو الأمواتِ من أهلِ الدنيا، وهم

(١) فى (ط): «المقربين بالحسنى ... المبعدين بالسوء» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «التقوى» وأثبت ما فى (ك).

مرحومو الأحياء من أهل العَلِيّ الأعْلى؛ لأنّ قربَهم بُعْدٌ عند المقربين، وكشفُهم حَجْبٌ عند المشاهدين، وعطاءَهم رَدٌّ عند المواجهين، إلا أن الله تعالى نظر إليهم لما نظروا لنفوسهم؛ حكمةً ورحمةً منه لهم، فَسكَّنَهم فى حالهم، ورضَّاهم بمقامهم، كيلا تشتتَ قلوبُهم، ولا تتحيَّر[1] عقولُهم.

والسّابقونَ الأوّلونَ هم الوجهةُ العليا والمتمسكون بالعروةِ الوُثْقَى، نظروا إليه سبحانه وتعالى به فنظر إليهم منه، فهم كما وصفهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٠٧]، لا يرجعون إلى مال، ولا ينظرون إلى حال، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨]، فهم كما وُصِفوا فى الكتب السالفة.

قال الحواريون: يا روحَ الله، صِفْ لَنَا أولياءَ اللهِ الذين لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. فقال: هُمُ الَّذِينَ نَطَقَ بِهِم الكتابُ وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتابُ وبه عَلِمُوا، وبهم قَامَ الكتابُ وبه قاموا، نظروا إلى باطنِ الدنيا حين نظرَ الناسُ إلى ظاهرها، وعاينُوا آجلَ الدنيا حين عاينَ الناسُ عاجلَها، فأماتُوا منْهَا ما خَشَوْا أن يُميتَهم، وتَرَكُوا منها ما عَلِمُوا أن سَيَتْرُكُهُم، فصار دَرْكُهم منها فواتًا، وَفَرحُهم بها حرمانًا، ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرفَ لهم بغير الحق وضعوه، خَلَقَتِ الدُّنيا عندهم فَلَمْ يُجَدِّدُوها، وَخَرِبَت فيما بينهم فلم يَعْمُروها، وماتت فى صدورِهم فلم يُحيُوها، قدَّمُوهَا فَبَنَوْا بها آخرتَهم، أَحيَوْا ذِكْرَ الموتِ وأمَاتُوا ذِكْرَ الحياةِ، يُحِبُّون الله ويحبون ذِكره، ويستضيئون بنورِه ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ، وعندهُم أعجبُ الخبرِ العجيب.

وقال عزّ وجلّ فى وصفهم، ومَنْ أَحْسَنُ من الله حديثًا: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] وفيها مقرأ غريب، بمعنى الجمعِ للشهداءِ، وكأنَّه جُعِلَ وصفًا لما تَقَدَّمَ من ذكرهم،

(١) فى (ك): «ولا تتحول».

في قوله تعالى: ﴿الصَّابرينَ والصَّادقينَ﴾ إلى قوله ﴿والمُسْتَغْفرينَ بالأسْحَار * شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ﴾ [آل عمران:١٧ ـ ١٨]، وقال: ﴿كَفَى بالله شَهيداً بَيْنى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَاب﴾ [الرعد:٤٣].

فهذا وصف يزيد على كل وصف، ويستغرقُ نَعت الواصفين.

ويَجْمَعُ هذه المقاماتِ السبعةَ من المراقبة والمشاهدةِ حالانِ عن مقامين، مدارُ المقاماتِ كلّها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما؛ فأحدهما: الخوف عن مقام العلم. والحال الثانى: الرجاءُ عن مقام العمل. فمن كان مقامُه العلمَ بالله كان حاله الخوفَ منه، ومن كان مقامه الرجاءَ لله تعالى كانت حاله المعاملةَ له. ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إنَّمَا يَخْشَى اللهَ منْ عبَاده العُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعبَادَةِ رَبِّه أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]؟

[قال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية، لما تلاها: «لو لم يُقل من القرآن إلا هذه الآية لكفتهم. أو لكُفيتم». ولا حول ولا قوة إلا بالله][1].

* * *

(١) ما بين المعكوفتين من (ك).